



تفاعل الثقافي والاقتصادي في أسواق المدن العتيقة

حالة مدينة فاس المغربية: مقارنة أنثروبولوجية

محمد زين العابدين التوالي

باحث في سلك الدكتوراه، تخصص علم الاجتماع، جامعة ابن زهر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير

المغرب

ملخص:

يتناول المقال دراسة أسواق المدينة العتيقة في فاس المغربية من منظور أنثروبولوجي، حيث يهدف المقال إلى فهم التفاعلات والثقافية التي تميز هذه الأسواق كمراكز تجارية حيوية، مع إبراز دورها في تعزيز الهوية الثقافية المغربية من جهة، ومساهمتها في تنمية الاقتصاد المحلي من جهة أخرى. إذ تعتمد في هذه الدراسة على المنهج الإثنوغرافي لوصف هذا التفاعل في بين الثقافي والاقتصادي الأسواق. وذلك باستعمال التحليل الوثائقي للنصوص التاريخية المتعلقة بنشأة وتطور هذه الأسواق، والملاحظات الميدانية في أسواق فاس العتيقة، بالإضافة إلى المقابلات المعمقة مع التجار والزبائن المحليين والزوار. وذلك للوصول إلى نتائج تعبر على أن أسواق المدينة العتيقة ليست فقط مراكز للتجارة، بل هي حاملة للتراث الثقافي الغني للمغرب، وتشكل مكانا للتبادل الثقافي والمعرفي بين المحليين والزوار. غير أن هذه الأسواق تواجه تحديات اقتصادية نتيجة لتزايد المنافسة مع المنتجات الصناعية الحديثة وتأثيرات العولمة، التي إلى تغييرات ملموسة في طبيعة الأسواق، حيث ظهرت منتجات جديدة تلبي ذوق الزوار، مما أثر على الطابع الأصلي لبعض السلع وأدى إلى تحول في بعض الأنشطة التجارية. توصي الدراسة بضرورة تعزيز الجهود لحماية الصناعات الحرفية والأساليب التقليدية المستخدمة في الأسواق العتيقة، وذلك من خلال توفير الدعم المالي والتدريب الحرفي للشباب، ثم وضع استراتيجية لتنظيم النشاط السياحي من أجل المحافظة على الهوية الثقافية للأسواق وتعزيز التفاعل الإيجابي بين الزوار وأصحاب المحلات الحرفية والتجارية، بالإضافة إلى هذه الأسواق من خلال نهج سياسات حكومية تشجع على الابتكار وترويج المنتجات المحلية، مع تحسين البنية التحتية لضمان نشاط الأسواق العتيقة.

الكلمات المفتاحية: الأسواق - المدينة العتيقة - الأنثروبولوجيا - الثقافي - الاقتصادي.

**Abstract:**

The article deals with the study of the markets of the ancient city of Fez in Morocco from an anthropological perspective, as the article aims to understand the social and cultural interactions that characterize these markets and their role in strengthening the Moroccan cultural identity on the one hand, and as vital commercial centers that contribute to the development of the local economy on the other hand. The study relies on the ethnographic method to describe this interaction between cultural and economic markets. This is done using documentary analysis of historical texts related to the origin and development of these markets, field observations in the ancient markets of Fez, in addition to in-depth interviews with merchants, local customers and visitors. This is to reach conclusions that express that the souks of the ancient city are not only centers of trade, but are carriers of the rich cultural heritage of Morocco, and constitute a place of cultural and knowledge exchange between locals and visitors. However, these markets are facing economic challenges as a result of increased competition with modern industrial products and the effects of globalization, which has led to tangible changes in the nature of markets, where new products have appeared to meet the taste of visitors, which affected the original character of some goods and led to a shift in some commercial activities. The study recommends the need to strengthen efforts to protect handicrafts and traditional methods used in antique markets by providing financial support and craft training for young people, then developing a strategy to organize tourism activity in order to preserve the cultural identity of the markets and promote positive interaction between visitors and owners of craft and commercial shops, in addition to supporting these markets through government policies that encourage innovation and the promotion of local products, while improving infrastructure to ensure the continuity of antique markets activity.

Keywords: Markets – Medina – anthropology – Cultural – Economic.



مقدمة:

تقوم المقاربة الأنثروبولوجية للمدينة العتيقة بدراسات مفصلة للعلاقات والتفاعلات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في المدن القديمة. وتركز هذه المقاربة على فهم العلاقة بين الأفراد والمجتمع والمجال، وتقوم أيضا بتحليل الممارسات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في السياق الحضري العتيق. وتنصب اهتمامات هذه المقاربة على الحياة اليومية في المدينة العتيقة، والعلاقات بين السكان والمكان والموروثات الثقافية والدينية التي تشكل جزءا من هويتهم وسلوكهم. كما تهدف هذه المقاربة إلى تحليل العلاقات بين المدينة العتيقة والمجالات الاجتماعية المحيطة بها، وتحليل التأثيرات التي تفرزها هاته العلاقات على السكان والثقافة والمجتمع. ويعتبر التركيز على البعد الاجتماعي والثقافي في هذه المقاربة أحد الجوانب الرئيسية التي تميزها، والتي تهدف إلى فهم المدينة العتيقة كمجتمع معقد يتأثر بالعوامل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والبيئية المحيطة به.

يحدد مصطلح "المدينة العتيقة" في معاجم اللغة بتعبيرات متقاربة، خاصة في معاجم اللغة الفرنسية، حيث ورد في معجم "لاروس" «La Rouse»، أن مصطلح "المدينة العتيقة" هو «Médina»، يعني المدينة القديمة مقابل الأحياء الجديدة في الدول العربية وخاصة في المغرب¹. وبنفس الصيغة جاء في قاموس "لوروبر" «Le Robert»، أن كلمة «Médina»، تعني في الدول العربية، وخاصة في المغرب، المدينة القديمة مقابل الأحياء الجديدة². أما في قواميس اللغة الإنجليزية سواء "أوكسفورد" أو "كمبريدج" فلم وجود أي تعريف يخص المدينة القديمة. وفي قواميس اللغة العربية، ورد في معجم النفايس الكبير أن كلمة "العتيق" تعني القديم من كل شيء، و"العتيقة" مؤنث العتيق وهي ضد الجديد، يقال عند العرب قنطرة عتيقة وقنطرة جديد، لأن العتيقة بمعنى الفاعلة، والجديد بمعنى المفعولة، ليفرق بين ما له الفعل وبين ما الفعل واقع عليه، ويقال بكر عتيقة أي نجية وكريمة، وامرأة عتيقة أي جميلة³. وفي المعجم الوسيط تشق كلمة "العتيقة" من الجذر اللغوي "عتق" و "عتق" الشيء عتقا وعتقا أي قَدم، فهو عاتق وعتيق أي بلغ نهايته ومده، وعتق المال أي صلح، والعتيق هو القديم⁴. ومنه يمكن القول إن كلمة "العتيقة" تتخذ من كلمة "القديمة" مرادفا لها، إلا أن الأولى لها دلالة على الجمال والحسن والتميز، بينما الثانية تدل على الزمن الماضي، وقد تكون تعني التجاوز والزوال. فتكون للمدينة العتيقة دلالة أفضل من المدينة القديمة.

اتجهت مجموعة من التخصصات في العلوم الإنسانية للدراسة والاهتمام بالمدينة العتيقة، وخاصة الدراسات التاريخية والجغرافية والعمرانية والأركيولوجية والسوسيولوجية، فمن الناحية التاريخية تم تعريف المدن العتيقة بأنها ذاكرة للأجيال، وواحدة من التراث الرئيسي للمجتمع، وثرثا ثقافي وتاريخي، غالبا ما تكون علامة على ماضي مجيد. تتمتع العديد من هذه المدن بشهرة دولية وقد تم تصنيف بعضها على أنها تراث عالمي للإنسانية ومنها مدينة فاس التي صنفت سنة 1981م. مع ذلك، غالبا ما تم إهمال هذه الثروة من قبل السلطات العامة، وغالبا ما ينظر إليها سكان المدن على أنها أماكن محرومة ومراكز للفقر وأعشاش للمشاكل الاجتماعية. في السنوات الأخيرة، مع الطفرة التي شهدتها قطاع السياحة والتطور غير المسبوق الذي شهدته بعض المدن العتيقة، لا سيما مدينتي مراكش والصويرة، بدأ تقدير التحدي الذي يمثله هذا التراث بقيمته العادلة. في أصل هذا الإدراك، ظهرت ظاهرة التحسين في بعض المدن العتيقة؛ خاصة تلك الموجودة في مراكش والصويرة وأزمور. تنتقل صورة المدن العتيقة من صورة مكان غير محبوب يشغله سكان ليس لديهم سكن بديل، إلى صورة مكان ساحر، حيث يكون امتلاك رياض أو منزل تقليدي علامة على الثروة والمكانة المتميزة. وقد ورد في معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية تعريف "المدينة" باعتبارها تجمعا سكانيا وعمرانيا دائما وكبيرا يمتاز بالأسلوب الحضري للحياة. وتعدد تعريفات المدينة حسب عدد السكان أو نوع المهنة الغالبة، أو الأساس الاقتصادي للوحدة السكانية أو المظهر العمراني أو المستوى الإداري، حيث يرى "سوروكين" «Sorokin»، أن المدينة تتميز وفق أسس معينة وهي الحرفة والبيئة والحجم والكثافة والتجانس والتنافر السكاني والتباين في الطبقة الاجتماعية والحركة الاجتماعية ونظام التفاعل⁵. حظيت المدينة العتيقة بأهمية بالغة في أعمال ماكس ويبر «Max Weber»، من خلال اهتمامه بالمدينة والدولة وعبر دراسته للتحليل الاجتماعي للدولة، حيث



أن دراسته التاريخية للمدن تتعلق بالعصور القديمة وفترة العصور الوسطى. إذ أن المدينة ابتكرت رأس المال انطلاقاً من العصور الوسطى، وبه تشكل الربح ذو الطبيعة الاقتصادية والعقلانية، لصالح الدولة الاحتكارية⁶.

انطلق معظم الأنثروبولوجيين، عند دراستهم للمدينة، من مقارنتهم لهذه الأخيرة مع نظيرتها المجالية وهي "القرية"، باعتبار أن كل واحدة منهما تعرف الأخرى، حيث صرح "ريمون لودريت" «Raymond LEDRUT»، بأن الخاصية الرئيسية للتحضر المميز للمجتمعات الصناعية هي أن المدينة تتحدد بعلاقتها مع القرية ومع ذاتها⁷، كما أعلن "مانويل كاستل" «Manuel CASTELS»، في كتابه المسمى "المسألة الحضرية" «La question Urbaine»، وفي بعض مقالاته حول السوسيولوجيا الحضرية⁸، أن تاريخ ظهور التجمعات السكانية الكثيفة يرجع حسب الأبحاث الأركيولوجية إلى العصر الحجري الأخير أي حوالي ألف سنة قبل الميلاد، وذلك راجع إلى تحول على مستوى التقنية وتغيرات في الأوضاع الاجتماعية والطبيعية للشغل عند المزارعين، حيث أصبحوا ينتجون فائضاً يزيد على حاجياتهم، فتطور بذلك نظام التبادل والتوزيع، وتطورت معه الأنظمة الاجتماعية، حيث أصبحت المدن هي مكان السكن للناس الذين تخلصوا من النشاط الفلاحي. وبالتالي فإن إنشاء المدن القديمة كان على أساس وجود فائض الإنتاج المستخرج من الأرض والنشاط الفلاحي.

اعتبر "إميل دوركهايم" «Emil DURKHEIM»، المدينة أنها مجتمع للتضامن العضوي⁹، حيث ربط في أطروحته "تقسيم العمل الاجتماعي" بين نشأة المدن وانتقال المجتمعات من الحالة التجزئية إلى المجتمعات ذات الحالة المعقدة، وأبرز من خلالها احتلال الإنسان للمجال وتغييره بهدف توضيح سيرورة إنشاء المدن، فكانت هذه الأخيرة نتيجة لتكديس الناس في تجمعات كبيرة ومتصلة فيما بينها. وقد عبر عن ارتفاع الكثافة العددية والمادية للمدن أنها تؤدي إلى زيادة في الكثافة الروحية والحضارية، ويأتي هذا الاستنتاج الذي وصل إليه إميل دوركهايم تطبيقاً لنظريته الوضعية التي قسم فيها السوسيولوجيا إلى "مورفولوجيا اجتماعية" و"فيزيولوجيا اجتماعية" عندما أراد التمييز بين "الإستاتيك الاجتماعية" و"الديناميك الاجتماعية". ورغم أن "كارل ماركس" عبر عن هذا التمييز "بالبنية التحتية والبنية الفوقية" إلا أن المورفولوجيا الاجتماعية عند دوركهايم تعني بدراسة الشكل المادي للمجتمع بينما الفيزيولوجيا الاجتماعية تهتم بالشكل لروحي المتمثل في سلوكيات أفراد المجتمع وتمثلاتهم ووعيهم الجمعي¹⁰. تلتقي آراء دوركهايم مع العديد من المفكرين والعلماء الذين شهدوا على التغيرات الاجتماعية، التي طرأت على المجتمعات الغربية منذ عصر الأنوار، والتي حولتها من مجتمعات تقليدية إلى مجتمعات صناعية حديثة، حيث ترسخت عند هؤلاء المفكرين فكرة التقدم، التي طغت في كتاباتهم، وهي التي برزت عند مؤسسي علم الاجتماع مثل: سان سيمون، وأوكست كونت، وكارل ماركس، وهربرت سبنسر، ثم إميل دوركهايم وماكس فيبر. وعبرهم تم الربط بين التقدم والتحضر ثم الظاهرة الحضارية.

يقوم المشروع الفكري للسوسيولوجي الألماني "ماكس فيبر" «Max WEBER»، على مرتكزين أساسيين هما العقلانية حيث يعتبر العقلانية بمثابة خاصية للتميز التقني ونتيجة من نتائج التخصص العلمي المميزان للحضارة الغربية، أما الشرعية أو السلطة القائمة على أسس ثقافية¹¹، فقد أجملها في مجموع القوانين والمعايير المنظمة للحياة الاجتماعية، والتي تقوم بتنسيق مختلف الأنشطة والعلاقات بين الناس أنفسهم وبين أدواتهم ووسط عيشهم، من أجل بلوغ درجة مثالية من المردودية والفعالية¹². إن التحليل الفيبري للسلطة الشرعية، المكون من ثلاثة أنواع وهي التقليدية والكاريزمية والبيروقراطية، هو نفسه الذي تبناه في تحليله للمدينة، في محاولة الفهم التاريخي لتطور المدينة في أوروبا الغربية حيث اعتبر المدينة هي النموذج المثالي لما يمكن أن تصل إليه العقلانية الحضارية، وذلك لتجسيدها للديموقراطية المحلية المتمثلة في المجالس المنتخبة والتنفيذية والقضائية. وأكد ماكس فيبر على أنه لا يوجد تعريف موحد للمدينة بل توجد تعاريف كمية تعتمد معيار عدد السكان، وتعاريف كيفية تقوم على معيار الثقافة، ومنه استطاع أن يضع أول محاولة لتعريف سوسيولوجي للمدينة، يصف فيه نوعية السكن وعدد السكان ونوعية العلاقة بينهم، وكان أول من أدمج المعيار الكمي في تعريف سوسيولوجي نموذجي للمدينة من خلال توصيفه للعلاقات الاجتماعية التي تنجم عن العدد المرتفع للسكان في مجال



ضيق¹³. وقد استطاع ماكس فيبر أن يحدد طبيعة المدينة انطلاقاً من كيانها الاقتصادي والسياسي والإداري القانوني وغيرها، وذلك ارتباطاً بالوظائف التي تؤديها المدينة. وقد اهتم "ماكس فيبر" بالمدينة باعتبارها مركزاً لسلطة معينة ضمن مشروعه الفكري القائم على السيادة الشرعية والعقلانية، والذي من خلاله يمكن مساءلة المدينة حول كيفية تفسير الاستراتيجية الاجتماعية لسيطرة المجتمع على الحكم والسلطة.

نقل "جورج سيمل" «George SIMMEL»، الظاهرة الحضرية من دراسة تعريف المدينة إلى عرض تحليل لها، ومن دراسة المدينة في الماضي إلى دراستها في الحاضر، ومن دراسة المدينة الغربية باعتبارها النموذج المثالي للحضارة إلى دراسة الواقع الحضاري للمدينة، وذلك من خلال دراسة العلاقة بين الشكل والمضمون، التي جعلته يؤسس الاتجاه الشكلي في علم الاجتماع القائم على الأشكال الاجتماعية. وقد حدد "جورج سيمل" في مقالته "المدن الكبرى والحياة الذهنية"¹⁴ الأشكال الاجتماعية الحديثة التي ظهرت مع تغير وانتقال المجتمعات الغربية من الأشكال التقليدية إلى الأشكال الحديثة، المتمثلة في تضخم وتطور المدن إلى ما يسمى "بالميتروبولات" التي تميزت بسيادة وانتشار عناصر ثقافية جديدة أهمها؛ ظهور الاستقلال الفردي وسيادة الفردانية والحرية الممنوحة للأفراد وتحقيق الكونية، وأولوية العقل على العاطفة خاصة العقل التجريدي والحسابي وانتشار العقلية الحذرة، بالإضافة إلى سيادة الموضوعية على الذاتية، وارتفاع مدى ثقافة الملل والسأم مع انتشار ظاهرة تقسيم العمل¹⁵.

يذكر ابن خلدون في "المقدمة" أن البدو أقدم من الحضرة، لأن أهل البدو يهتمون أساساً بتحصيل ما هو ضروري للعيش والبقاء، بينما أهل الحضرة هم الذين تخلصوا من الاقتصاد المعيشي وانخرطوا في الاقتصاد الاستهلاكي. ويضيف ابن خلدون أن أهل البدو لما انتهوا أحوالهم إلى غايتها من الرفاه والكسب، تدعو الدعة والسكون الذي هو طبيعة البشر، فينزلون المدن والأمصا¹⁶. لأن المدينة توفر لهم كماليات الحياة ومختلف أسباب الرقي ونمط عيش أفضل. وبالمناسبة اعتبر الإسلام أن المدينة هي المكان الذي يعيش فيه الدين على حقيقته، لكون نمط العيش أفضل وأرقى من نمط العيش في القرى. وارتبطت الدعوة الإسلامية منذ نشأتها بالمدينة فاعتبرت المدينة تمتلك وصفا حضاريا واجتماعيا متقدما، يساعد على الاجتهاد والتعلم والطهارة والتعب، كما عرفت المدينة منذ القدم مختلف الأنشطة الثقافية من إدارية ودينية وعلمية، والأنشطة السياسية من عسكرية وتدابيرية وعلاقات داخلية وخارجية، والأنشطة الاقتصادية من تجارية وصناعية، وغيرها. لذلك كانت المدينة منذ القدم هي المهد للحركات الاجتماعية والثقافية التي من خلالها برزت مختلف المذاهب والتيارات الفكرية والسياسية، وكانت أيضا هي المجال الذي برز فيه مختلف الحرف والصناعات، وتطورت معه الظواهر الاجتماعية للتقسيم الاجتماعي للعمل وظواهر الحراك الاجتماعي والتفاوتات والعلاقات الاجتماعية. وذهب المفكر التونسي "هشام جعيط" إلى المدينة تولدت عن زيادة في الإنتاج الزراعي، مكنت هذه الزيادة البعض من الناس من التحرر من عمل الأرض ومن النشاط الزراعي¹⁷. كما صرح الباحث المغربي "عبد الرحمان المالكي" بأنه لا يمكن تعريف المدينة بمعزل عن القرية، حيث أن مصطلح "المدينة" يتحدد بالمحددات والفوارق التي تميزه عن نظيره "القرية"، وأن هذه الفوارق لا يمكن تحديدها إلا عند الأشخاص الذين عاشوا في كلا المجالين وهم "المهاجرون"، الذين يمتلكون صور العيش والعمل والسكن في أذهانهم¹⁸.

تشمل المقاربة السوسيوأنثروبولوجية للمدينة العتيقة دراسة الطقوس الدينية والثقافية والاجتماعية، وتحليل الهيكل الاجتماعي بين الطبقات الاجتماعية، والاهتمام بدراسة التغيرات التي تطرأ على المجتمع بالمدينة العتيقة مع مرور الزمن وتأثيراتها على الثقافة والمجتمع والاقتصاد. باعتبار المدينة العتيقة، كتراث إنساني وحضاري، فإنها تجسد ذاكرة الشعوب التي عرفتها منذ نشأتها، حيث أنه يطلق على المدينة العتيقة لفاس بما يسمى "فاس البالي"، وهو المركز التقليدي أو المدينة التقليدية الإسلامية طبقا للمعايير الخاصة المحددة من طرف المؤسسات والمنظمات الدولية¹⁹.

تعد المدينة العتيقة لفاس نموذجا فريدا للتجمعات الإنسانية في المغرب، سواء من الجانب التاريخي التراثي أو الثقافي الروحي أو المعماري الهندسي أو الاقتصادي الإنتاجي. فهي المدينة التي صمدت لأكثر من اثني عشر قرنا في المحافظة على التراث الإنساني



المغربي من التركيبة العمرانية والمعمارية، والثقافة المتنوعة للشعوب والأجناس التي عاشت في المدينة العتيقة منذ نشأتها سنة 789 ميلادية. إلا أن هذا النسيج العمراني والثقافي والاقتصادي العتيق يعرف تهديدا بالهدم والزوال بسبب عوامل متعددة، مما جعل الدولة تستشعر هذا الخطر، فبادرت إلى إنقاذ المدينة العتيقة عبر ترميم البنايات الآيلة للسقوط، إسوة ببعض التجارب الدولية وخاصة الدول التي تنتمي إلى حوض البحر المتوسط، التي قامت بتممين التراث اللامادي، وإعادة تأهيله وهيكلمته وتجديده، حيث تم إحداث مؤسسة خاصة بذلك هي وكالة رد الاعتبار وإنقاذ مدينة فاس «ADERFES»، التي تم إنشاؤها من طرف وزارة الداخلية من أجل الحفاظ على التراث المادي واللامادي للمدينة العتيقة.

1- الحياة الاقتصادية في أسواق المدينة العتيقة بين التقليد والتحديث:

تتميز الحياة الاجتماعية بأسواق المدينة العتيقة بفاس بتواجد كثيف للظواهر الاجتماعية المتداخلة والمتشابكة، والتي يصعب تفكيكها، بل يستعصي الأمر في تصنيفها، خاصة فيما يتعلق بالظاهرتين الثقافية والاقتصادية. وهذا راجع، في الغالب، إلى تواجد عوامل متعددة، تساهم في صعوبة التحديد والتصنيف لمختلف الظواهر الاجتماعية المتجلية في هذا المجال من المجتمع المغربي. وذلك لكون المجتمع المغربي مجتمعا مركبا²⁰، بالمعنى الباسكوني للكلمة، في كنهه ومظاهره. ويزداد التركيب تركيزا في مجتمع الأسواق بالمدينة العتيقة لفاس، لما يعرفه هذا المجال الحضري من خصوصيات تاريخية وعمرانية وثقافية واقتصادية واجتماعية. فكيف إذن يمكن تفكيك هذا التركيب في الظواهر الاجتماعية داخل أسواق المدينة العتيقة لفاس؟ وماهي الآليات المنهجية لمواجهة مثل هذا الإشكال؟

نقترح في هذا الصدد، استحضار تقنية تحليل الثنائيات «Dichotomies»، من أجل محاولة حل التداخل في تركيب الظواهر الاجتماعية بأسواق المدينة العتيقة لفاس، وخاصة فيما بين الظواهر الاقتصادية والثقافية. حيث يمكن اعتبار أن هذه الثنائيات ترتبط العلاقة بين ما هو تقليدي وما هو حديثي، وبين ما هو رمزي وما هو مادي، ثم كيفية ترويض الثقافي للسوق الاقتصادي. تختلف الحياة الاقتصادية في أسواق المدينة العتيقة بفاس حسب مختلف العصور. حيث تميزت هذه الأسواق في العصور القديمة، بكونها هي المركز الاقتصادي الأساسي للمدينة، وغالبا ما كانت تشمل الأسواق الرئيسية للمغرب. أما في العصر الحالي فقد تنوعت الأسواق حسب حجمها ومحتواها وطريقة تدبيرها والتسويق فيها. فما هي، إذن، أهم التغيرات التي عرفتتها الوضعية الاقتصادية للأسواق في المدينة العتيقة؟

للإجابة عن هذا التساؤل، قد لا يتطلب الأمر التعمق كرونولوجيا في الأحداث التي عرفتتها أسواق المدينة العتيقة من تغيرات اقتصادية مرتبطة بالعوامل المؤثرة فيها، سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو ثقافية أو غيرها. بل نقترح البحث في بعض التحولات السوسيو اقتصادية للأفراد والجماعات داخل أسواق المدينة العتيقة بين التقليد والتحديث. وذلك انطلاقا من قراءة كتابين، الأول: للباحث السوسولوجي المغربي "حسن قرنفل" بعنوان: "أهل فاس: المال والسياسة"²¹، والثاني: للباحث السوسولوجي المغربي "عزالدين الخطابي، الموسوم ب: "دينامية العلاقة بين التقليد والحداثة: تطور الحياة الاجتماعية بمدينة عتيقة"²². حيث أكد الباحثان على ثنائية في نظام البنية السوسيو اقتصادية بالمدينة العتيقة لفاس، تتمثل في قطاعين؛ الأول تقليدي يشمل الصناعة التقليدية والتجارة بالتقسيط، والثاني عصري يشمل التجارة والصناعة الحديثة والنقل والمعاملات التجارية والبنكية.

أشار الباحثان إلى أن النظام الثاني قد نما على حساب الأول، وخاصة بعد توجه بعض مكونات النظام الأول نحو الزوال والانقراض، رغم الازدهار والمجد الذي حققه هذا النظام للمدينة العتيقة عبر التاريخ²³. إلا أن تغيرات النظام التقليدي قد كرس ممارسات وعادات امتدت في ثقافة المجتمع المغربي عامة، والمجتمع الفاسي بصفة خاصة، نذكر من بينها نظام "الحنطة" الذي تم تأسيسه على يد القرامطة²⁴، وكانت "للحنطات" امتدادات في القرن التاسع عشر. حيث ظهر نظام السخرات والتوزيعات لصالح السلطان والمخزن، ثم تقديم الخدمات والهدايا للأحباس والوقف باسم "حق الله"، وتقديم هدايا وأضحية لأضرحة الأولياء، والتي لازالت تقام ليومنا هذا على



شكل مواسم ومهرجانات ثقافية مثل موسم المولى إدريس الثاني، وموسم سيدي علي بوغالب، ومهرجان المديح والسماع، والموسيقى الروحية، والأندلسية وغيرها.

كان النظام التقليدي للحرف اليدوية يعتمد على العرف ونظام الحسبة كآليات أساسية لتدبير القطاع، من خلال وجود تعاونيات تعمل وفق مستويات متدرجة للمسؤوليات والتراتبات الاجتماعية، كان صاحب المعمل أو الورشة يسمى "المعلم"، يعمل لصالحه صناع يتقاضون حسب مهارتهم وكفاءتهم المعرفية، ويساعدهم صبيانا "متعلمين" يمتحنون الحرفة إلى أن يصبحوا بدورهم "صناعا"، يعملون لصالح التعاونيات الحرفية التي يترأس كل منها "الأمين" الذي ينتخب أو يتم اختياره من بين كبار المعلمين المنتمين لنفس الحرفة، وهو الذي يتحمل مسؤولية الدفاع عن مصلحة التعاونية أو الحرفة أمام سلطة المخزن، يقوم بتيسير الوساطة بينهما، ويعمل على حل النزاعات بين المعلمين والزبائن، وهذا الأمين لا يمكن أن يباشر عمله إلا بعد موافقة السلطة المخزنية المجسدة لدى المحتسب، الذي يراقب الأمناء والأوزان، ويحدد الأثمان والمقاييس، ويسن القوانين ويصدر الأحكام ويطبق العقوبات الجزرية على لمخالفين، عبر استعمال خول له من سلطة تنفيذية وقضائية في المجال التجاري والصناعي²⁵. كان التجار يتعاملون بالبضائع والخدمات التي تتوفر فيها، وكانت تشمل مختلف الصناعات والحرف التقليدية مثل النسيج والصناعات الغذائية والمعادن والخشب والجلود والسيراميك والزجاج والأثاث والأدوات المنزلية والحرف اليدوية والتحف والأزياء. وعادة ما تكون هذه الأسواق متواجدة في المنطقة المركزية للمدينة وتتميز بأنها تجذب السكان المحليين والسياح. وعلى الرغم من أن الأسواق التقليدية قد شهدت تراجعاً في بعض المدن مع التطور الاقتصادي والتجاري، فإنها ما زالت تحتفظ بجمالها التاريخي وتستمر في جذب المتسوقين والزوار الذين يبحثون عن السلع التقليدية والخدمات.

لم تتخل الدولة المغربية نهائياً على الصناعة الحرفية والنظم التقليدية التابعة لها في العصر الراهن، وتعويضها بصناعة حديثة عصرية تتماشى مع متطلبات العصر وتنافس الصناعات العالمية المتقدمة، بل حافظت على القطاع، وتعمل بالاستمرار على جعله ذو فعالية، لما له من أهمية اقتصادية وثقافية واجتماعية. فرغم ما يعرفه قطاع الصناعة التقليدية من مشاكل هيكلية متنوعة متوارثة منذ القدم، إلا أن الدولة تسعى توجه إلى التحديث من خلال إرساء آليات قانونية وتنظيمية عصرية، تتمثل في إنشاء مؤسسات حكومية تابعة لوزارة السياحة والصناعة التقليدية والاقتصاد الاجتماعي والتضامني، التي تتكلف بإعداد وتنفيذ السياسة الحكومية فيما يخص المشاريع وتأطير ودعم المهنيين العاملين بقطاع السياحة والصناعة التقليدية، بالإضافة إلى الإشراف على مختلف المعاهد والمؤسسات المتخصصة في التكوين والتأهيل المهني في السياحة والفندقة والصناعة التقليدية.

وفي العصر الحديث، يوجد أيضاً أسواق إلكترونية في المدينة العتيقة، حيث يمكن للتجار بيع البضائع والخدمات عبر الإنترنت وتوصيلها إلى المستهلكين. ويمكن أن تشمل هذه الأسواق المتاجر الإلكترونية والتطبيقات والمواقع الإلكترونية التي تمكن المتسوقين من الشراء عبر الإنترنت من التجار المحليين في المدينة العتيقة.

2- أسواق المدينة العتيقة: سجل الرمزي والمادي.

استطاعت أسواق المدينة العتيقة بفاس، على مر العصور، أن تحافظ على جزء كبير من التراث الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وهي تمثل في آن واحد، رأسمالاً مادياً ولا مادياً لمدينة فاس، إذ تعكس تاريخ واقتصاد وثقافة المدينة عبر العصور. وعرفت هذه سجلات مثيرة بين التراث المادي والتراث الرمزي. فما هي مظاهر وتجليات الجانبين المادي والرمز لأسواق المدينة العتيقة؟ وماهي تأثيراتهما على العلاقات والتراتبات الاجتماعية بها؟

يتجلى الجانب المادي في كون أسواق المدينة العتيقة لفاس تشكل مجالا مادياً لمزاولة الأنشطة الاقتصادية والمالية للأفراد والجماعات المكونة للمجتمع المحلي، إذ توفر هذه الأسواق فرص عمل للعديد من الأفراد القاطنين بالمدينة العتيقة أو الوافدين من مناطق أخرى،



وهي بذلك قد تساهم في النشاط الاقتصادي المحلي وتزيد من إيرادات التجارة والسياحة والصناعة التقليدية والخدمات، وتوفر فرصا للعيش والدخل للباة والتجار والحرفيين والعمال ومقدمي الخدمات. وذلك من خلال:

أولا، توفير مساحات للتجارة وبنية تحتية ملائمة، حيث أن الأسواق بكل أنواعها وتجلياتها توفر المساحات المناسبة لكل نشاط تجاري أو حرفي أو خدماتي، وقد تشمل هذه المساحات بنايات تحتية للإنتاج أو للتسويق أو هما معا، متمثلة في محلات تجارية كبيرة وصغيرة وورشات حرفية وصناعية، ومؤسسات عمومية وخصوصية، ومحلات ودكاكين وأكشاك مهيكلة وغير مهيكلة، ومنصات أرضية لعرض البضائع بصفة نظامية أو غير نظامية. كما يمكن للتجار والحرفيين امتلاكها أو استئجارها بتكاليف مناسبة لهم. كما توفر هذه الأسواق بنية تحتية جيدة في المدينة العتيقة، تشمل تحسين الطرق والممرات للراجلين "المشاة"، وتسهيل ولوج وسائل النقل للساحات، وتقريب أماكن لوقوف السيارات، وتوفير وسائل الراحة. تسهم هذه البنايات في جعل الأسواق مكانا جذابا للزوار والسكان المحليين على حد سواء، وقد توفر للفاعلين الاجتماعيين فرص عمل ومداخل إضافية، تنمي عيشهم²⁶.

ومن ناحية ثانية، تقوم الأسواق في المدينة العتيقة بفاس بتعزيز القطاع السياحي والتسوق الإلكتروني، حيث تعد هذه الأسواق مقصدا سياحيا مهما، يمكن ترويج هذه الأسواق كمعالم سياحية وتثبيت الجذب من خلال تنظيم جولات سياحية وفعاليات تعريفية. هذا من عدد الزوار وبالتالي يمكن أن يزيد من فرص البيع والشراء، وتنمي التجارة في المدينة العتيقة، التي تؤدي بدورها إلى تنمية الاقتصاد المحلي والوطني. كما يمكن للتجار والحرفيين وأصحاب الخدمات، إلى جانب التجارة التقليدية، أن يقوموا بتوسيع نطاق عملهم عبر الإنترنت من خلال منصات التجارة الإلكترونية، مما يتيح لهم وصولا أوسع إلى العملاء²⁷.

كما يمكن أيضا للأسواق بالمدينة العتيقة لفاس أن تدعم الحرف اليدوية والمنتجات المحلية وتقوم بتنويع العروض والخدمات، وذلك من خلال تشجيعها للتجار والحرفيين والمهنيين على تقديم منتجات فريدة ومحلية الصنع، يمكن أن تجذب المزيد من المشتريين. يمكن للحرفيين تقديم أورش عمل أو دورات تعليمية للمهارات التقليدية لجذب اهتمام الزوار والمحليين. كما يساهم تنوع الأسواق في المدينة العتيقة في تنويع العروض والخدمات المقدمة. بالإضافة إلى أن هذه الأسواق يمكنها أن تنظم عدة فعاليات وأنشطة ثقافية واجتماعية داعمة للاقتصاد المحلي، مثل تنظيم عدة معارض للصناعات التقليدية والمنتجات المحلية، وتكثيف المهرجانات والمواسم، وفتح القنوات مع الأسواق الشعبية المجاورة للمدينة. بواسطة هذه التدابير، يمكن للأسواق أن تجذب الزوار والأجانب للتمتع بالعروض المحلية، التي تغريهم على الفعل التجاري، وتشجعهم على إنشاء عقود التعاون والشراكات مع مستثمرين أجانب، قد يساهمون في زيادة حجم الأعمال والمبيعات خلال فترات الأنشطة وبعدها²⁸.

أما الجانب الرمزي فقد يتجلى في كون أسواق المدينة العتيقة لفاس تعد رمزا للتراث والهوية المغربية؛ إذ أنها تحمل في طياتها القصص والحكايات التي تمتد لقرون وعقود من الزمن، وتعكس هذه الأسواق العادات والتقاليد وما تحمله من معاني اجتماعية وثقافية واقتصادية، التي عرفها سكان مدينة فاس وزوارها عبر العصور، وتشكل وجهة للسياحة والثقافة العالمية، وخاصة الروحية منها، لأنها تستقطب الزوار والسياح من مختلف بلدان العالم للاستمتاع بتجربة تسوق فريدة من نوعها ولاكتشاف التراث المحلي والمغربي ومنه يمكن القول بأن الأسواق في المدينة العتيقة لفاس تحافظ على التراث والهوية المغربية، وتعكس العادات والتقاليد القديمة من عدة جوانب، أهمها:

التاريخ والتراث: تعكس أسواق المدينة العتيقة طابعا تاريخيا طويلا وثقافة عريقة، قد تكون هذه الأسواق قد تأسست منذ عصور وشهدت تطورات متعددة على مر العصور، هذا التاريخ يجعلها جزء لا يتجزأ من تراث المدينة. بالإضافة إلى العمارة والتصميم التقليدي الذي تتميز به أسواق المدينة العتيقة بفاس. حيث أن البنية المعمارية الفريدة والتفاصيل الزخرفية تعكس الأسلوب المعماري التقليدي للمنطقة وتحمل في طياتها قصصا عن الحضارة والفنون والتقاليد المحلية. كما تقدم هذه الأسواق المواد الغذائية في تشكيلة واسعة من



الأطعمة والمأكولات التقليدية، يمكن للزوار تذوق الأطعمة التي تمثل وتحتفظ بالوصفات القديمة والطرق التقليدية للطهي، مما يجعلها تجربة غذائية ذات قيمة ثقافية²⁹.

المنتجات التقليدية: إذ تعرض أسواق المدينة العتيقة بفاس مجموعة متنوعة من منتجات المنتجات والتقليدية والبضائع المصنوعة يدويا وفقا للطرق التقليدية، التي تمثل الصناعات التقليدية والحرفية للمنطقة. هذه المنتجات مرتبطة بالتقاليد المحلية، مثل الملابس الجلدية التقليدية والحديثة وصناعة النحاس والفخار والأواني التقليدية والمجوهرات، والتي تُظهر الفنون والصناعات القديمة والمهارات اليدوية الأصيلة. تعبر هذه المنتجات عن التراث والفنون المحلية، وتحمل في طياتها الرموز الثقافية والتقاليد والعادات، التي تجعل أسواق العتيقة بفاس كمرآة تعكس طرق الحياة والتقاليد والثقافة المحلية. إذ يمكن للزوار والمقيمين الاستمتاع بتجارب فريدة من نوعها من خلال التفاعل مع الباعة والتجار واستكشاف العروض المحلية³⁰.

الأحداث والفعاليات وإغناء التجارب الشخصية: تتجلى في كون أسواق المدينة العتيقة بفاس تستخدم كموقع لإقامة الفعاليات الثقافية والفنية والمهرجانات التقليدية، الشيء الذي يساهم في تعزيز الهوية المحلية وتجسيد التراث من خلال الأنشطة والعروض المختلفة، توفر أسواق المدينة العتيقة فرصة للزوار للانغماس في الثقافة المحلية والتواصل مع السكان المحليين، حيث توفر هذه التجربة الشخصية للزوار فرصة لفهم أعمق للهوية والروح المحلية. كما تقوم الأسواق في المدينة العتيقة بفاس بدعم القدرات المهنية للصانع التقليديين والحرفيين، وتنوع تجارب التفاعل لدى الناس بقدوم الزوار من جميع بقع العالم، الذين يمكنهم التفاعل مع السكان المحليين والباعة والتجار والحرفيين، هذا التفاعل يمكن أن يكشف لهم عن التقاليد والعادات وأسلوب الحياة القديم والحديث³¹.

بشكل عام، تقوم العناصر المادية في سجال مستمر مع المكونات الرمزية بأسواق المدينة العتيقة بفاس لكي توفر بيئة ملائمة لتنوع العروض والخدمات والاستثمارات في التسويق والترويج، ولتشكيل مصدرا مستداما للعيش والدخل لمجموعة متنوعة من الأفراد والمشاركين، كما تحمل معها قيمة ثقافية وتاريخية عميقة، وهي تشكل جزءا حيويا من الهوية المحلية وتعكس تراث المدينة بأكملها. إلا أن العناصر المادية والرمزية تضرع علاقات وتراتبات اجتماعية، تجعل من أسواق المدينة العتيقة بفاس، مجالا فريدا من نوعه لتعايش الطبقات الاجتماعية، داخل علاقة ثنائية بين السادة والخدم، حتى أصبح البعض يسميها: "مدينة السادة والخدم"³².

انبهر الكثير من الكتاب والمؤرخين والباحثين، العرب منهم والمستشرقين، من الثقافة الاجتماعية لمدينة فاس؛ من عاداتها وتقاليدها المميزة لأحيائها وأسواقها، ومن العلاقات والتراتبات الاجتماعية التي تطبع سكانها، حيث أن الإنسان الفاسي كان يتباهى ويفتخر وكان يتضح ذلك من خلال اهتمام أفراد المجتمع الفاسي في امتلاك المنازل الجميلة، وذلك طبقا للمثل القائل: "أول ما يجب أن المرء هو المنزل، وهو أيضا آخر ما يجب بيعه، لأن المنزل هو قبر الدنيا وسعادتها"³³. وأن جمالية المنازل في المدينة العتيقة لا تظهر عبر واجهاتها، ولا شيء يوحي ببذخ المنزل من الخارج، بل في رياضاتها الداخلية وعدد العاملين بها؛ إذ أن كلما كثر الخدم في المنزل كلما سمت وعلت قيمة مالكه. وكل ما يقال على المنزل يطبق على المحل التجاري و "دار الصنعة"، وورشات الحرف، وكل العقارات. وكان طبع الإنسان الفاسي أنه يتبع التقاليد والعادات المتوارثة من جيل لجيل، حيث يحافظ على الصناعة اليدوية والحرفية وعلى اللباس التقليدي وعلى الطبخ المغربي الأصيل، وعلى الثقافة الدينية والروحية، ويصل الماضي بالحاضر عبر التذكير باستمرار العيش والأذواق المتجذرة في المدينة العتيقة. حتى أصبح الوضع في فاس، يتسم بوجود عصر واحد وأسلوب واحد، هو "أسلوب الأمس واليوم والغد"، الذي يوصف بمعجزة قمع الزمن. وهذا يعطي لهذه المدينة طابعا فريدا، ربما فريدا في الكون، ولكن بالتأكيد في ضفاف البحر الأبيض المتوسط.

وصف المؤرخون والكتاب الذين اهتموا بالدراسات الاجتماعية والتاريخية لمدينة فاس³⁴، أن الحياة الاجتماعية في أسواق المدينة العتيقة لفاس تتميز بشدة نظمها الاجتماعية والأسرية، وقد خصص المهتمون بدراسة هذه المدينة القروسطية عروضاً مطولة لوصف



العادات والتقاليد وديناميتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية التي أسهمت في تنوع الحضارة الفاسية³⁵. حيث أن المدينة العتيقة لفاس تميزت، قبل الحماية، بوجود طبقتين اجتماعيتين متفاوتتين تعيشان، في أغلب الأحوال، تحت سقف واحد، ولهما مورد مشترك للعيش؛ أي في منزل أو دار السلعة أو غيرها من المحلات التجارية والحرفية. ويتعلق الأمر بطبقة الملاكين من التجار والميسورين الفاسيين، وطبقة الخدم والعمال. حيث أنه كان عند باب كل منزل غني، هناك دائما خادمان، على الأقل؛ هما الحمال والكاتب، ويوجد أيضا، خادم مكلف بالبغل أو الحصان، الذي ينتظر خروج سيده عند باب محل السكن أو العمل. بالإضافة إلى الخادومات، وغالبا ما يكون لون بشرتهن داكن، وهن ثلاث أنواع، أولهن زنجيات المطبخ، وقد كلفن بالطبخ والأشغال المنزلية، وثانيهن زنجيات الأطفال يهتمن بتربية أطفال السيد، وأخريات سمين بزنجيات السرير³⁶.

إذا كان مالك المكان موظفا رفيعا في المخزن، فقد يزداد عدد الخدم على سبعة الذين تراهم عند المدخل، مع غطاء أحمر مدبب في كسوة رسمية، إذ يرتدي الخدم ملابس أنيقة للغاية ويتحدثون طوال اليوم عن أخبار السادة والجيران والحي والسوق والمدينة التجار والحرفيين المعروفين. كما يوجد داخل المنزل خدم وخادومات عاطلين عن العمل في كل مكان، أسندت لهم مهمة المراقبة وتأنيث المشهد الاجتماعي للمسكن. أما سيد المنزل، فظهوره يكون نادرا إلا من أجل تدير بعض النزاعات الأسرية أو بعض مشاكل التجارة والعمل، يستقبل الزوار والضيوف بنعمة شرقية طيبة، ويأمر موكب الخادومات الزنجيات لحفل الشاي، وللوجبات الأساسية إذا اقتضى الحال لذلك³⁷. بالإضافة إلى الفوارق الاجتماعية، توجد فوارق ثقافية وفكرية بين الأسياد المالكين للمال والعقارات، وبين الذين يخدمون أسيادهم في كل شيء، حيث أن الثقافة والمعرفة يخلقان أعماق الاختلافات بين الكائنات. حيث توجد في فاس ثقافة اجتماعية ومعرفة بالفعل، لكن هذه الثقافة، بالكاد تغير منسوب الذكاء بين السيد والخادم في أسواق المدينة العتيقة³⁸.

3- تأثير الثقافي على الاقتصادي بأسواق المدينة العتيقة:

تعرف الحياة الاقتصادية تتخذ أسواق المدينة العتيقة الطابع التركيبي في فهم في هذا كيف يمكن للثقافي أن يروض الاقتصادي؟ وما هي الآليات المستعملة على غرار ما تم رصده من طرف كل من "ميشيل كروس" «Michèle Cros»، من جامعة "ليون 2" «Université de Lyon II»، و"دانيال دوري" «Daniel Dory»، من جامعة "لا روشيل" «La Rochelle»، حول ترويض السوق في بوليفيا³⁹، على أنه من الممكن التفكير والتأثير بشكل طقوسي على العوامل المجهولة والعشوائية للسوق التي تحدد الفرص الفردية والجماعية، وذلك للحفاظ على عملية الحراك الاجتماعي للطبقات الحضرية الشاسعة في السوق، ثم تصبح أسواق هذه المدينة أدوات للهيمنة والتحكم الرمزي في التوترات المستمرة بين المنطق الاقتصادي المحلي، ما قبل الرأسمالية جزئيا، والسوق الرأسمالي والوطني والعالمي.

يتطلب فهم الخطابات والممارسات الاجتماعية لدى الأفراد والجماعات في أسواق المدينة العتيقة لفاس، وصف الخصائص الرئيسية لتأثير الظاهرة الثقافية على الاقتصادية، ثم تفسير بعض السياقات الجديدة، عبر عرض بعض التحولات الرئيسية التي مر بها المجتمع الفاسي منذ منتصف القرن العشرين، مع التركيز على تلك التي قد يكون لها علاقة بالمعتقدات والممارسات الطقسية وبالمعرفة والتجربة الدينيين وكذلك بالمشاركة الانتماء الدينيين، ثم تحليل الرموز والدلالات التي تعطي معنى وفعالية لأسواق المدينة العتيقة لفاس.

يحدد الباحث المغربي "حسن قرنفل" في كتابه الموسوم "بأهل فاس: المال والسياسة"، في فصله الثاني⁴⁰، أن مدينة فاس لعبت دورا اقتصاديا كبيرا عبر العصور، وأنها عرفت عدة آليات ثقافية لترويض السوق، منها آليات مهنية حرفية، وأخرى قانونية شرعية؛ أي نسبة إلى التشريع الإسلامي، وأخرى عرفية تقليدية.

الآليات المهنية: يهيمن على النشاط الاقتصادي بأسواق المدينة العتيقة، مهنة الحرف والصناعات اليدوية من جهة، والتجارة من جهة أخرى. حيث أن الصناعات اليدوية والحرف عرفت ازدهارا كبيرا مع وفود أفواج المهاجرين القدماء القادمين من قرطبة والقيروان



والأندلس الذين يرجع لهم الفضل في تقدم هذه المهن التي عرف من خلالها النشاط الاقتصادي بالمدينة ازدهارا على مر العصور. بالإضافة إلى التنظيم المهني الذي أقامه القرامطة منذ القرن التاسع الميلادي لهذه الحرف، عبر فرض نظام "الحنطات" التي أدت فيما بعد إلى ظهور نظام "التوزيعات" و "السخرات" لصالح أفراد المخزن، وإلى نظام "الامتيازات" لفائدة الأسر الكبرى، ثم "اقتصاد الربيع"، وهي أنظمة كلها بدأت بخلفية دينية ثقافية، كان يطلق عليها "حق الله"، لتصل إلى ما هي عليه الآن بطبيعة نفعية مصلحية تخدم خصوصية الأفراد على حساب المجتمع⁴¹.

تقوم الأسواق بالمدينة العتيقة لفاس حاليا على توفير أورش عمل للعاملين في قطاع الصناعة التقليدية والحرفية، واستقبال أفواجا من المتعلمين والمتدربين من مختلف المعاهد والتكوينات المهنية، تهدف إلى تعزيز المهارات الحرفية التقليدية وتطويرها وتحسين جودة المنتجات وزيادة قيمتها الثقافية. كما تعمل الأسواق عبر البنيات التحتية للإنتاج والتسويق على تنظيم دورات تدريبية من طرف الوصية على القطاع. بالإضافة إلى تقديم دعم وتوجيه للحرفيين والصناعيين المحليين من خلال تبادل المعرفة والخبرات، مما يمكنهم من التحسين المستمر والابتكار في منتجاتهم.

الآليات الشرعية: عملت أسواق المدينة العتيقة منذ نشأتها بمبادئ الدين الإسلامي وشريعته، حيث يشكل التشريع الإسلام الحياة الفاسية، سواء تعلق الأمر بالتجارة والصناعة، أو بالنظم والإدارة المسيرة لهما. إن تواجد التشريع الإسلامي في الصناعة والتجارة يقوم على الأمر والنهي. حيث يقبل بالتبرعات المالية سواء كانت مفروضة مثل الزكاة، أو مستحبة مثل الهبات والصدقات والوقف والعارية وغيرها، بينما يرفض التصرفات التي نهى عنها الإسلام مثل الربا والغش والسرقة والتجارة الممنوعة وغيرها⁴².

تعمل الأسواق في المدينة العتيقة لفاس وفق التشريعات والتنظيمات المتعامل بها في الشريعة والقانون المغربيين، حيث نجد الإسلام متواجدا في كل مكان من الحياة الفاسية، رغم وجود عدد من المتطويعين أو من تراجعوا عن مبادئ عقيدتهم الإسلامية، إلا أنهم لا يظهرون سلوكياتهم أمام المتدينين، كما يؤكد "لوطورنو"، ويتصرفون كمسلمين مقتنعين بقيم الشريعة الإسلامية⁴³، بل يتخذون من التدين كاستراتيجية حياتية للتعايش ولتحقيق المصلحة المالية الخاصة.

الآليات العرفية: لعب العرف دورا فعالا في ترويض أسواق المدينة العتيقة بفاس، إذ يستمد العرف كينونته من الثقافة المغربية ذات المزيج الأمازيغي والعربي والأوروبي، وترتكز الحياة التجارية والصناعية على هذا العرف غير المكتوب، من خلال نقل التقاليد والعادات بين الأجيال التي تنقل معها المعرفة الدينية والمهارات الصناعية والحرفية والكفايات التسويقية، ثم عبر احترام القيم المحلية مثل "الثقة والكلمة والرجولة"، وعبر تشجيع التفاعل الاجتماعي بين الباعة والمشتريين والزوار وتبادل الثقافات الشعبية والاجتماعية. وقد تعمل الآليات العرفية على التي يتشبث بها الأفراد في أسواق المدينة العتيقة في مواجهتها لمظاهر العولمة التي تغلغل في المجتمعات التقليدية على جعل التقليد والحداثة في جدل مستمر في مثل هذه المجتمعات⁴⁴.

تعتبر المدينة العتيقة لفاس من أقدم وأهم المدن التاريخية في المغرب وشمال إفريقيا، وهي مشهورة بثقافتها الغنية وتراثها العريق. تمتاز بوجود العديد من الآليات الثقافية التي تعمل على ترويض السوق وتعزيز التنمية الاقتصادية والثقافية في المدينة، وذلك من خلال ثلاث آليات رئيسية تتجلى في الأبعاد المهنية الحرفية، ثم القانونية الشرعية، بالإضافة إلى العرفية التقليدية. حيث تشمل الأولى كل التعامل مع مختلف المهن التقليدية والحرفية التي تشتهر بها مدينة فاس، مثل النسيج والجلود والفخار والنحاس وغيرها. يتم تنظيم هذه القطاعات بشكل منظم، حيث يتم توجيه الصناعيين والحرفيين وتقديم الدعم والتدريب لتطوير المهارات وتعزيز الجودة والإبداع. بينما تشمل الثانية مجموعة القوانين واللوائح التي تنظم النشاطات الاقتصادية والتجارية والمالية وفقا للتشريع الإسلامي أو التشريع الوضعي، وذلك بغية ضمان العدالة والمساواة في المعاملات والتعاملات المالية والتجارية وفقا للمبادئ الشرعية والقانونية. أما الآليات الثالثة فهي تستند إلى التقاليد والعادات المحلية والقيم الاجتماعية التي تنظم التفاعلات والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع.



خاتمة:

تعد مدينة فاس العاصمة الروحية للمملكة، التي تختزل الذاكرة المغربية منذ القرون الوسطى، وهي التي حافظت على جوانب الحضارة العربية الأكثر إبهارا في التاريخ. وهي التي تعرف بمجالها وعمرانها المتنوع، وبثقافتها الدينية المتوارثة بين الأجيال. وتشهد المدينة العتيقة بطابعها الاحتفالي والسياحي والتجاري، إذ تعرف حركة ثقافية واجتماعية متميزة على مدار السنة، تتجسد في غزارة مواسمها ومهرجاناتها الدولية والوطنية والمحلية، بالإضافة إلى الاحتفالات الدينية والأنشطة الثقافية المختلفة والمتنوعة. وتعتبر المدينة العتيقة حاضرة تتميز بكثرة الذين يمشون في شوارعها وأزقتها، أو بمعنى أن الناس يتنقلون فيها على الأقدام بشكل كبير دون الحاجة للمركبات الآلية، وتسمى بهذا المعنى مدينة المشاة، يستطيع السياح زيارتها من جميع بقع العالم، لتمييزها بهذه الخصائص. وتتميز بأسواقها المتنوعة والكثيفة.

استطاعت أسواق المدينة العتيقة بفاس، أن تحافظ على جزء كبير من التراث الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والديني، وهي تمثل رأسمالا ماديا ولا ماديا لمدينة فاس، إذ تعكس تاريخ واقتصاد وثقافة المدينة عبر العصور. وعرفت هذه الأسواق سجلات مثيرة بين التراث المادي والتراث الرمزي. تعكس أسواق المدينة العتيقة طابعا تاريخيا طويلا وثقافة عريقة، قد تكون هذه الأسواق قد تأسست منذ عصور قديمة وشهدت تطورات متعددة على مر العصور، هذا التاريخ يجعلها جزء لا يتجزأ من تراث المدينة.



الهوامش:

- ¹ – <https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/m%C3%A9dina/50142> (visité le 15/09/2022). – médina (nom féminin) : Dans les pays arabes, et surtout au Maroc, la vieille ville, par opposition aux quartiers neufs.
- ² – <https://dictionnaire.lerobert.com/definition/medina> (visité le 15/09/2022). – médina (nom féminin) : Partie ancienne d'une ville, en Afrique du Nord (spécialement au Maroc).
- ³ – أبو حاقّة أحمد وآخرون، معجم النفائس الكبير، دار النفائس، ط 1، 2007، ص. 1207.
- ⁴ – أنيس إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط 1، 2004، ص. 582.
- ⁵ – بدوي أحمد زكي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، ط 2، 1982، ص. 60.
- ⁶ – BRUHNS Hinnerk, Ville et État chez Max Weber. In: Les Annales de la recherche Urbaine, Villes et Etats, N°38, 1988, pp. 3-12
- LEDRUT Raymond, L'espace social de la ville, ed. Anthropos, Paris, 1968, P. 7. 7
- t-il une sociologie urbaine ? In : Sociologie du travail, 10^e année n°1, ⁸ – CASTELLS Manuel, Y a
- Janvier-mars 1968. pp. 72-90.
- ⁹ – المالكي عبد الرحمان، مدرسة شيكاغو: ونشأة سوسيولوجيا التحضر والهجرة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط 1، 2016، ص. 15.
- 10 – DURKHEIM Emil, La science sociale et l'action, col. sup., éd. PUF, Paris, 1970, p.153.



- 11 - يربط ماكس فيبر بين الشرعية والسلطة على أن كل سلطة تفترض مبدأ الشرعية على أساس معايير ذات طبيعة ثقافية، وقد ميز ثلاثة أصناف للسلطة، الأولى هي السلطة التقليدية المرتكزة على الإيمان بقداثة التقليد في نظام معين، والثانية هي السلطة الشرعية البيروقراطية المنبثقة من العقلنة الغائية المحددة للأهداف المناسبة عبر الوسائل المتاحة، والثالثة هي السلطة الكاريزمية التي تقوم على الاعتقاد في القدرات الخاصة والخارقة لفرد معين. وبناء على هذا التقسيم الثلاثي للسلطة الشرعية، يرى فيبر أن المدينة في المجتمعات الغربية عرفت تنابعا للنوع الأول من السلطة فقط، بينما اختفى النوعين الآخرين.
- 12 - REMY Jean et VOYE Liliane, *La ville et l'urbanisation*, éd. Duculot, Paris, 1978, P.P. 209-211.
- 13 - WEBER Max, *La ville*, traduit de L'Allemand par Philippe FRITSCH, éd. Aubier Montaigne, Paris, 1982, P.P. 17-18.
- YOSHIO Atoji, Georg Simmel. *A Portrait of the Man and his Sociology*, Sociologica, vol. 9, n° 2, 1985, p.p.20-22.
- 15 - SIMMEL Georg, *Les grandes villes et la vie de l'esprit. Suivi de "Sociologie des sens"*, Paris, Payot, séries : « Petite Bibliothèque Payot », 2013, 107 p., trad. J.-L. Vieillard-Baron et F. Joly, préf. P. Simay, ISBN : 978-2-228-90887-0.
- 16 - ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد، مقدمة ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الجزء الأول، دار الجيل، بيروت، بدون سنة الطبع، ص. 190.
- 17 - جعيط هشام، الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط 2، 1993، ص. 67.
- 18 - عبد الرحمان المالكي، الثقافة والمجال: دراسة في سوسيولوجيا التحضر والهجرة في المغرب، منشورات مختبر سوسيولوجيا التنمية الاجتماعية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرز، فاس، ط 1، 2015، ص. ص. 213-239.
- 19 - المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "إيسيسكو"، جهود المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة في العناية بالمدن العربية التقليدية: طموحات الحاضر وآمال المستقبل، ندوة مركز المدينة العربية التقليدية بين الحاضر والمستقبل، مجلس مدينة حمص، المعهد العربي لإنماء المدن، حمص، سورية، 2004، ص. 242.
- 20 - باسكون بول، طبيعة المجتمع المغربي المزيجة، ترجمة مصطفى كمال، في ملف بول باسكون وعلم الاجتماع القروي، بيت الحكمة، العدد الثالث، السنة الأولى، أكتوبر 1986، ص. ص. 53-59.
- 21 - قرنفل حسن، أهل فاس: المال والسياسة، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، ط 1، 2007، ص. ص. 45-77.
- 22 - الخطابي عزالدين، دينامية العلاقة بين التقليد والحداثة: تطور الحياة الاجتماعية بمدينة عتيقة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط 1، 2015، ص. ص. 31-24.
- 23 - لوطنو روجي، فاس قبل الحماية، مرجع سابق، الجزء 1، ص. ص. 425-531.
- 24 - القرامطة هي جماعة سياسية كانت تتبنى الإسلام الراديكالي في التنظيمات الاجتماعية وبناء المؤسسات، ظهرت منذ القرن التاسع الميلادي واستمرت إلى غاية القرن 12 الميلادي، وحاولت تغيير العالم الإسلامي حسب ما جاء في كتب التاريخ وتاريخ الأديان، من بينها:
- ابن الأثير، التاريخ الكامل، الجزء 6، المطبعة الأزهرية المصرية، ط 1، 1301 هجرية، ص. 211.
- عارف تامر: القرامطة بين الالتزام والإنكار، دار الطليعة الجديدة، سوريا، 1996، ص. ص. 12-20.
- شاكر محمود: التاريخ الإسلامي (5) الدولة العباسية، ج 1، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 3، 1987م، ص. 13.
- 25 - MARTY Paul, *la société de Fès, Renseignements et documents, supplément de l'Afrique Française*, N°8 Bis, Aout 1925, P. 367.
- 26 - الزكاري ابن الخياط عبد الرحيم، البنيات التحتية لقطاع الصناعة التقليدية: منطقة الأنشطة الحرفية للنحاسيات بعين النقيب كنموذج، المديرية الجهوية للصناعة التقليدية والاقتصاد الاجتماعي، فاس، 2019، ص. ص. 5-17.
- 27 - نفس المرجع السابق ص. ص. 10-14.
- 28 - نفس المرجع السابق ص. ص. 14-17.
- 29 - برحيلة فاطمة، دعم القدرات المهنية للصناع التقليديين بمجال الدباغة التقليدية، المديرية الجهوية للصناعة التقليدية والاقتصاد الاجتماعي، فاس، 2019، ص. ص. 4-24.
- 30 - نفس المرجع، ص. ص. 5-15.



- 31- نفس المرجع، ص. ص. 15-25.
- 32 - THARAUD JEROME ET JEAN, FEZ ou Les Bourgeois de l'Islam, Librairie PLON, Paris, 1930, P.P. (Traduction de chercheur). 7-15.
- 33 - Ibidem, P.P. 7-15.
- 34- الوزان الفاسي الحسن بن محمد، وصف إفريقيا، مرجع سابق، ص. ص. 221-291.
- 35- لوطورنو روجي، فاس قبل الحماية، مرجع سابق، ص. ص. 692.
- 36 - THARAUD Jérôme ET Jean, FEZ ou Les Bourgeois de l'Islam, Op.cit., P. 8.
- 37 - Ibidem., P.11
- 38 - Ibidem., P.10.
- 39 - CROS Michèle et DORY Daniel, Apprivoiser le marché, Journal des anthropologues, 2004, P.P. 171-201, [En ligne], mis en ligne le 22 février 2009, consulté le 06 novembre 2022. URL: <http://journals.openedition.org/jda/1710> ; DOI : <https://doi.org/10.4000/jda.1710>.
- 40 - قرنفل حسن، أهل فاس: المال والسياسة، مرجع سابق، ص. ص. 47-77.
- 41 - نفس المرجع السابق، ص. ص. 47-57.
- 42 - نفس المرجع، ص. ص. 60-75.
- 43- لوطورنو روجي، فاس قبل الحماية، مرجع سابق، ص. 837.
- 44 - الخطابي عزالدين، دينامية العلاقة بين التقليد والتحديث، مرجع سابق، ص. 40.